١- باب فضل التوحيد، وما يُكفِّر من الذنوب

وَقَولِ اللهِ - تَعالَى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»(١). أَخْرَجاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّماواتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٥) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٣٣).

غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)»(١). رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَالْحَاكِمُ، وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ - وَحَسَّنَهُ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: **«يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»**(٢).

○○○

الشرح:

هذا باب عظيم في عنوانه ومحتواه، ذكر فيه المؤلف آية وأربعة أحاديث.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب فضل التوحيد**»: المراد بالتوحيد: توحيد العبادة؛ بدلالة ما ذكره من النصوص. وتوحيد العبادة متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، كما سبق.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٩١٣)، وأبو يعلى في «المسند» (١٣٩٣)، وابن حبان في صحيحه (٦٢١٨)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٣٧) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وضعفه الألباني في «ضعيف موارد الظمآن» (٢٩٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٤٣٠٥)، وقال الترمذي: «حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وصححه الألباني.

وله شاهد أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٨٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: «**وما يُكَفِّر من الذنوب**»: يجوز أن تكون «**ما**» موصولة بمعنى الذي، وأن تكون مصدرية، أي: «باب بيان عظيم فضل التوحيد وتكفيره للذنوب»، وهذا أشمل وأولى؛ لرفع وهم أن ثمَّ ذنوبا لا يكفِّرُها التوحيد، وليس بمُراد.

و«**مِن**» بيانية، وليست للتبعيض.

والكلام على هذا الباب في ثلاثة فصول:

* * *

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

لمَّا بَيَّن المؤلف في الباب الأول وجوب التوحيد وعظمته ومعناه، بيَّن هنا فضل التوحيد وآثاره وعوائده على الموحِّد في الدنيا والآخرة، والتي منها: تكفير الذنوب.

وفي هذا مزيدُ حَثٍّ وترغيب فيه، وفي التمسك به والثبات عليه.

* * *

الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: فضائل التوحيد، وأدلتها:

الفضيلة الأولى: الأمن في الدنيا والآخرة:

ودليلها قول الله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والمراد بالأمن: الأمن من عذاب الدنيا، كما عُذِّبت الأمم السابقة، والأمن من عذاب الآخرة. وهذه نعمة عُظمى: أن يكون آمنا في دنياه وأُخراه، والسبيل إليها هو التوحيد الخالص.

قال الله - عز وجل -: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٩]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: يوم ينفع الموحِّدين توحيدُهم[1].

وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ إشارة إلى أن الأمن خاص بهم، وهو أبلغ من أن يقال: آمنون.

الفضيلة الثانية: الاهتداء في الدنيا والآخرة:

ودليله الآية السابقة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]. والهداية في الدنيا تكون إلى العلم النافع والعمل الصالح، وفي الآخرة إلى الجنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٧٠٦٣).

قال تعالى في حقِّ الموحِّدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩]، وقال في حق غيرهم: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣]، فهناك هداية إلى صراط النعيم، وهداية إلى صراط الجحيم!.

قال ابن القيم: «أصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد»(١).

الفضيلة الثالثة: دخول الجنة:

لحديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، وفيه قوله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ... أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»(٢).

الفضيلة الرابعة: النجاة من النار:

لحديث عِتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق، وفيه قوله ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٣).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

الفضيلة الخامسة: تثقيل الميزان:

لحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكره المؤلف في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، وحديث صاحب البطاقة، وما جاء في معناهما.

وحديث صاحب البطاقة رواه عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحافِظُونَ؟ فيقول: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لا، يا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً؛ فإِنَّه لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطاقَةٌ، فِيها: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: أَحْضِر وزنك. فَيَقُولُ: يا رَبِّ، ما هَذِهِ الْبِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ. قالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ والبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطاقَةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»[2].

---

(١) تقدم تخريجه، وهو ضعيف.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصححه الألباني.

الفضيلة السادسة: مغفرة الذنوب:

لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكره المؤلف[1]، وما ورد في معناه.

الفضيلة السابعة: الإعانة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

لأن الموحد مؤمن بربه، متعلِّق قلبُه بمعبوده؛ وهذا يبعثه على العمل له في جميع أحواله، بخلاف المرائي ونحوه.

الفضيلة الثامنة: البعد عن النفاق:

فإن من حقق التوحيد، استنار قلبه بنوره، ولم يبق فيه محل للنفاق.

قال يونس بن عُبَيد: «لا كِبر مع السجود، ولا نفاق مع التوحيد»[2].

الفضيلة التاسعة: التحرُّر من عبودية غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

وهذا كمال العزة والشرف، أن يكون المرء عبدا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده دون ما سواه.

والعبودية هي: التذلل، والتذلل لله - تعالى - كمال العز والشرف؛ ولهذا وصف الله نبيه ﷺ بهذا الوصف (العبودية) في أشرف المقامات وأرفعها: ففي مقام إنزال الكتاب قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ولم يقل: على رسوله، وإنما قال: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، وفي مقام الإسراء والمعراج قال

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا ص٢٧٥.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وفي مقام التحدِّي للمعاندين والمخاصمين قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

ومِمَّـــــــا زادَنِي شَرَفـــــــا وفَخْـــــــرا
وكِـــــدتُ بأَخْمِصِـــــي أَطَـــــأُ الثُّرَيَّـــــا
دُخُـــــولِي تحـــــتَ قولِـــــكَ: «يَـــــا عِبـــــادِيْ»
وأَنْ صَـــــيَّرْتَ أحمـــــدَ لِي نَبِيًّـــــا[1]

○○○

المبحث الثاني: ضابط فهم نصوص الوعد:

ورد في هذا الباب جُملة من نصوص الوعد التي تفيد أن من أتى بـ «لا إله إلا الله» دخل الجنة وغُفِرت ذنوبُه.

وفي المقابل تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يزِنُ ذرة من إيمان، وتواترت - كذلك - بأن كثيرا ممن يقولها يدخل النار ثم يخرج منها، وصحت الأحاديث بالوعيد بدخول النار، أو الحرمان من الجنة على بعض الأعمال كقطيعة الرحم والنميمة وغيرهما.

فيَرِد هنا إشكال، خلاصتُه: هل من أتى بالتوحيد، ولم يقع في الشرك بنوعيه، تُغفَر ذنوبه، ولو كان مُقارِفا للكبائر العِظام، كما هو ظاهر حديث

(١) ينظر: «مرقاة المفاتيح» (١/٩)، والأبيات منسوبة للقاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١)؟ وهل يُحَرَّم على النار كما يدل عليه حديث عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢)، وغيرهما مما جاء في معناهما؟

ومثال ذلك: المسلم الموحد الذي أتى بأركان الإسلام الخمسة، لكنه قاطع للرحم، فهل يدخل الجنة؟

إذا قلنا: يدخل الجنة، فهذا مُصادِم - في ظاهره - لحديث: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(٣).

وإذا قلنا: لا يدخل الجنة، قيل: كيف وهو مسلم موحِّد أتى بأركان الإسلام جميعًا، ولم يشرك باللهِ شيئا، فكيف يُنفَى عنه دخول الجنة؟!.

وهذه مسألة زلت فيها أقدام، وضلت فيها أفهام!.

والجواب عن هذا الإشكال:

أن أحاديث هذا الباب نوعان:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)، من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أحدهما: ما فيه أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة ولم يُحجب عنها، وهذا ظاهر لا إشكال فيه؛ فإن النار لا يُخلَّد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص، بل مآلُه إلى الجنة.

الثاني: ما فيه أنه يحرُم على النار من قال كلمة التوحيد. وهذا محل الإشكال، ووجهه: أنه يعارِض - في ظاهره - الأحاديثَ التي جاء فيها أن من العُصاة من يدخل النار، والوعيد بعدم دخول الجنة على من فعل كذا من المعاصي، وما ورد أنه يَخرُج من النار أقوام من أهل التوحيد بعد أن يُعذَّبوا فيها.

وأجاب العلماء عن هذا الإشكال بأجوبة:

الأول: أن أحاديث الوَعْد كانت قبل نزول الفرائض والحدود، ويعبر عنه بعضهم بالنسخ. وهذا منقول عن الزهري والثوري وغيرهما. جاء في صحيح مسلم - بعد سياق حديث عتبان -: «قال الزهري: ثم نزلت بعد ذلك فرائض وأمور نرى أن الأمر انتهى إليها، فمن استطاع أن لا يغتر فلا يغتر».

وهذا القول تعقَّبه الحافظان ابن رجب، وابن حجر، والعلَّامة العثيمين - رحمهم الله جميعا -[1].

---

(١) ينظر: «كلمة الإخلاص» ص١٢وما بعدها، و«فتح الباري» (١/٦٢٢)، و«القول المفيد» (١/٧٤).

قال ابن رجب: «وهذا بعيد جدا؛ فإنَّ كثيرا منها - تلك الأحاديث - كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك، وهي في آخر حياة النبي ﷺ»(١).

الثاني: أن المراد تحريمُ التخليد أو تحريم دخول النار المعدة للكافرين، لا الطبقة المُعَدة للعصاة؛ فهذه يدخلها خلق كثير من عُصاة الموحدين بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين وبرحمة أرحم الراحمين.

وكذلك فيما ورد بنفي دخول الجنة، مثلُ قوله ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(٢)، محمول على أنه لا يدخلها أول الداخلين، أو في درجة معينة منها.

الثالث: أن المراد من هذه الأحاديث أن «لا إله إلا الله» سبب مقتضٍ لدخول الجنة والنجاة من النار، ولكن المقتضِي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن ووهب بن منبِّه.

قال ابن رجب: «وهو الأظهر»(٣).

---

(١) «كلمة الإخلاص» ص١٩.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «كلمة الإخلاص» ص١٣.

قيل للحسن: إن أُناسا يقولون: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، فقال: من قال: «لا إله إلا الله» فأدى حقها وفرضها، دخل الجنة(١).

وسئل وهب بن منبِّه: أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك(٢).

قال ابن رجب: «ويدل على صحة هذا القول أن النبي ﷺ رتَّب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثير من النصوص»(٣)، ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة منها.

فنصوص الوعد مقيدة بالشروط التي جاءت في الأحاديث: «**صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ**»(٤)، و«**لَا يَلْقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٥)، و«**مَنْ لَقِيتَ**

---

(١) «كلمة الإخلاص» ص١٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه معلَّقا قبل حديث رقم (١٢٣٧)، ورواه موصولا في «التاريخ الكبير» (١/ ٩٥).

(٣) «كلمة الإخلاص» ص١٥.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢)، من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وتمامه: «**ما مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**».

(٥) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ»[1]، و«**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»**[2]، و«**يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»**[3].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث؛ فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مُصِرًّا على ذنب أصلا، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء[4].

قال بعض أهل العلم: إذا كثرت الذنوب ثُقُل على اللسان قولها وقسا القلب، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن[5].

---

(١) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٢) سيأتي تخريجه، بإذن الله – تعالى –.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) ينظر: «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» ص٢٩.

(٥) قال ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٣٣١): «الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب؛ فتكون صورة العملين واحدة وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل وطاشت لأجله السجلات، لمَّا لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة».

ويستفاد مما سبق أن أهل السنة وسط في باب الوعيد بين غُلاة المرجئة القائلين: بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب؛ أخذا بظواهر النصوص التي فيها: من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنة وحُرِّم على النار، وبين الوعيدية من الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد عصاة الموحدين في النار؛ أخذا بظواهر النصوص التي فيها عدم دخول الجنة لاقتراف بعض المعاصي؛ مثل: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**»(١)، «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ**»(٢).

* * *

وقال ابن رجب في «كلمة الإخلاص» ص٢١: «وهذا كله إشارة إلى عمل القلب وتحققه بمعنى الشهادتين .. وتحقيق هذا المعنى وإيضاحُه: أن قول العبد «لا إله إلا الله» يقتضي أن لا إله له غير الله، والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاء وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله – عز وجل – فمن أشرك مخلوقا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية، كان ذلك قدحا في إخلاصه في قول «لا إله إلا الله» ونقصا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك. ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والعمل لأجله ..»، ثم ساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض شواهد ذلك.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) واللفظ له، من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الفصل الثالث: التعليق على النصوص، وربطها بالباب

النص الأول: قول الله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾: أي: لم يخلطوا إيمانهم وتوحيدهم بشرك، كما فسره النبي ﷺ؛ ففي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: لمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣]»[1].

وسُمِّي الشرك ظلما، والمشرك ظالما؛ لأنه وضَع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها.

ومن حقق إيمانه، ولم يلبسه بشرك نال الأمن في الدنيا والآخرة، والهداية إلى الصراط المستقيم.

- **وينبغي أن يُعلم أن الأمن والهداية نوعان:**

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٣٢) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٢٤).

أولا: أمن وهداية كاملان: وهما حاصلان لمن لم يتلبَّس بأي نوع من أنواع الظلم الثلاثة:

١- الظلم الأكبر (الشرك بالله): وهو الذي لا أمن معه ولا هداية البتة.

٢- ظلم العباد في نفس أو مال أو عِرض: وهذا ظلم عظيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا؛ فَلَا تَظَالَمُوا**»(١).

٣- ظلم العبد نفسَه بالذنوب والمعاصي.

وهذان القسمان الأخيران واردان في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ**﴾ [فاطر: ٣٢].

ثانيا: أمن وهداية جُزئِيَّان: وهما حاصلان لمن وقع في ظلم العباد أو النفس، ويرتفع عنه من الأمن والهداية بحسب ما وقع منه من الظلم.

وأما من دنَّس توحيده وإيمانه بالشرك الأكبر، فليس له أمن ولا اهتداء مطلقا.

فالحاصل أن تفسير النبي ﷺ محمول على مطلق الأمن، فمن سَلِم من الشرك فهو آمن من الخلود في العذاب، غير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧).

فالناس في هذا على ثلاثة أحوال:

١- من سَلِم من أنواع الظلم الثلاثة: فهذا له الأمن والهداية المطلقان التامَّان.

٢- من سَلِم من الظلم الأكبر، ووقع في غيره من ظلم العباد أو ظلم النفس: فهذا له أمن جُزئي لا كُلي، أو كما يقول أهل العلم: له مطلق الأمن لا الأمن المطلق.

٣- من وقع في الظلم الأكبر: فليس له أمن ولا هداية.

وهذا من ثمرات التوحيد المسلكية: أن يتفقد العبدُ قلبَه، ويُخلِّصه من شوائب الشرك، ويطهِّر ذمته من مظالم العباد، ويخلِّص نفسه من ظلمها بالوقوع في الذنوب والمعاصي، وذلك لأجل تحصيل موعود الله - تعالى - بالأمن والهداية في الدارين.

○○○

النص الثاني: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»[1]. أَخْرَجَاهُ.

---

(١) تقدم تخريجه.

«**أَخْرَجَاهُ**»: أي أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم في صحيحيهما.

قوله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ**»: لابد في الشهادة من العلم والعمل والصدق والإخلاص.

فبالعلم ينجو من طريقة النصارى الذين عمِلوا بغير علم فضلوا، وبالعمل ينجو من طريقة اليهود الذين لم يعمَلُوا بعلمهم فغضب الله عليهم، وبالصدق ينجو من طريقة المنافقين الذين يُبطنون خلاف ما يظهرونه، وبالإخلاص ينجو من طريقة المشركين الذين أشركوا مع الله غيره.

فكلمة التوحيد لا تنفع إلا من أتى بشروطها كما سبق بيانه.

ووصف عيسى بأنه «**كَلِمَةُ اللهِ**»؛ لأنه خُلِق بكلمة «**كُنْ**» فكان، وليس هو كلمة الله القائمة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مخلوق، وكلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ صفة من صفاته، غير مخلوق.

وقوله ﷺ: «**ورُوحٌ مِنْهُ**»، أي: روحٌ خلقها الله، نُفِخت في ذلك الجسد فصار بشرا من غير أب. فـ «**مِن**» للابتداء وليست للتبعيض، يعني ليست تلك الروح جزءا من الله - تعالى الله عن ذلك -، فهذا فهم شنيع، بل هذه الآية كقوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣].

والمسلمون وسط في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بين اليهود الذين قالوا: «إنه ولد زنا»! والنصارى الذين جعلوه إلها، أو ابنا لله، أو ثالث ثلاثة! ففي قوله ﷺ: «**عَبْدُ اللهِ**»: رد على النصارى، وفي قوله: «**وَرَسُولُهُ**»: رد على اليهود.

وقوله ﷺ: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ**»: بيانٌ لجزاء من شهد بالأمور الخمسة المذكورة في الحديث.

- **وإدخال الجنة قسمان:**

الأول: إدخال لم يُسبق بعذاب.

الثاني: إدخال مسبوق بعذاب.

وقوله ﷺ: «**عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»: يحتمل معنيين[1]:

الأول: أدخله الله الجنة، وإن كان مقصِّرا وله ذنوب؛ لأن الموحِّد لا بد له من دخول الجنة.

الثاني: أدخله الله الجنة، وتكون منزلته فيها على حسب عمله.

والشاهد من الحديث قولُه ﷺ: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»، أي: مصيره إلى الجنة على ما قدَّم من عمل، إما من أول الأمر، أو بعد تطهيره من ذنوبه، وهذا من فضائل التوحيد أنَّ من مات عليه فمصيرُه إلى الجنة، ولله الحمد والمنة.

○○○

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» ص٢٦.

النص الثالث: حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا إلى النبي ﷺ أنَّه قال: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[1].

وهذا الحديث فيه إشارة إلى شرط من شروط «لا إله إلا الله»؛ وهو الإخلاص. فالمنافقون في عهد النبي ﷺ كانوا يقولونها، لكنهم في الدَّرك الأسفل من النار، لا تنفعهم؛ لأنهم لم يبتغوا بها وجه الله. وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**»[2].

- **وتحريم دخول النار نوعان:**

الأول: تحريم مطلق الدخول، بمعنى: أنه لا يدخلها أبدا.

الثاني: تحريم الدخول المؤبد، بمعنى: أنه لا يخلد فيها، وإن دخلها جزاء على بعض معاصيه.

○○○

النص الرابع: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ - يَا مُوسَى -:**

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١).

هذا الحديث في إسناده مقال تقدَّمت الإشارة إليه.

وقوله ﷺ: «**أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ**»، أي: يجتمع فيه الأمران: الثناء والحمد، مع السؤال والطلب.

وكلمة التوحيد دعاء عبادة، وهو مستلزم لدعاء المسألة. ودعاء المسألة (نحو: رب اغفر لي) متضمن لدعاء العبادة.

ووجه الدلالة من الحديث: بيان فضل كلمة التوحيد وعظمتها، وأن السماوات السبع ومن يعمُرُهن غير الله - عز وجل -، والأرضين السبع لو كانت في كفة، وهذه الكلمة في كفة، لرجحت بهن لا إله إلا الله.

○○○

النص الخامس: حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(٢).

وقوله تعالى في هذا الحديث القدسي: «**لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا**»: يعني ما يقارب مِلأَها خطايا وذنوبا.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وكلمة «**شَيْئًا**» في قوله تعالى: «**ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا**»: نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم، يعني: لا تشرك بي شركا أكبر ولا أصغر، جلِيًّا ولا خفِيًّا.

فما جزاء من وفَّى بالشرط؟

قال تعالى: «**لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»، أي: لأتيتك بما يقاربها مغفرة لك، وهذا الحديث - كما ذكر أهل العلم - محمول على التوحيد الخالص الذي كمُلت شرائطه. وهو مطابق للترجمة؛ حيث دل على أن التوحيد سبب لتكفير الذنوب.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا - ... قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ»[1].

قال النووي: «الْمُقْحِمَاتُ: هو بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء، ومعناه: الذنوب العظام الكبائر التي تُهلِك أصحابها وتوردهم النار وتقحمهم إياها .. ومعنى الكلام: من مات من هذه الأمة غيرَ مشرك بالله غُفِر له المُقحِمات. والمراد - والله أعلم - بغُفرانها: أنه لا يخلَّد في النار بخلاف

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٣).

المشركين، وليس المراد أنه لا يُعذب أصلا؛ فقد تقررت نصوص الشرع وإجماع أهل السنة على إثبات عذاب بعض العصاة من الموحدين»[1].

قلتُ: ومن تأمل ما سبق - وغيرَه - من فضائل التوحيد وتدبَّرَها، أورثت له همة في العناية به، فاللهَ اللهَ في التوحيد، تعلموه، وافهموه، وحقِّقوه! وانظروا فيما يناقضه أو يخِل بكماله، أو يخدش صفاءه، فاجتنبوه؛ فإن النجاة يوم القيامة بهذا الأمر العظيم، وما كان كذلك فإنَّه حقيق أن يُعضَّ عليه بالنواجذ.

وكما يخاطَب الأفراد بذلك، فإن الخطاب مُوجَّه للجماعة - أيضا -. وإنَّ مما يؤخذ على بعض الجماعات والجمعيات الإسلامية - مع ما لها من جهود تُذكر فتُشكر، جزاهم الله عنها خيرا - عدمُ الاعتناء بقضية التوحيد بالقدر الذي تستحقه! فترى بعض هذه الجماعات أو الجمعيات مشغولة بقضايا حركية، وأمور تنظيمية من غير تركيز ولا تأكيد على قضية التوحيد، إلا قليلا. والواجب على من فتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له بابا للدعوة إليه: أن يعتني بقضية التوحيد غاية الاعتناء ويقدِّمها في البرامج والخطط والمشاريع الدعوية والإغاثية على غيرها من القضايا. وذلك بالدعوة إلى أصل التوحيد، وإلى تصحيحه وتنقيته وتصفيته من الشركِ وشوائبِهِ ووسائله، وبالتخويف من الشرك صغيره وكبيره.

* * *

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٣/ ٣)، وذكر هناك قولا آخر.